مريم المصرية

للمرة الاولى، استعدادا لملاقاتكم في النهار، قرأت في هذا الاسبوع سيرة هذه القديسة كاملة كما وضعها البطريرك صفرونيوس في القرن السادس. ذلك الذي التقى الخليفة عمر بن الخطاب عند باب بيت المقدس. قبل ذلك كنت اعرف السيرة موجزة في كتاب سير القديسين جميعاً والمعروف عندنا باليونانية بالسنكسار. ملحمة قداسة جديرة بأن تكتب شعراً لفرط جمالها وعمق قدسيتها. سأرويها لكم كما احسستها. من سنوات عدة رأيت نفسي في إلفة مع هذه المرأة. هل تعود إلفتي الى ايقونة لا تزال معلقة على عمود في أحب كنيسة علي، كنيسة تفتحت فيها في طفولتي على الصلوات الليلية في الصيام الكبير؟ ثم اذهلتني الايقونة الكبيرة القديمة جدا التي كانت تزين قصر هنري فرعون ونسختها لأحاور بها هذه الصديقة العظيمة.

ما من شك في ان السيرة تحتوي على عناصر اسطورية جعلت في النص اذكاء لتقوى المؤمنين. في البدء كانت محبة الناس لله تأتي من الشهداء وشجاعتهم. ولكن لما تمسحنت الامبراطورية ووقفت الشهادة ظهر شهود بيض صارت سيرتهم قدوة، خشية العادي والمألوف في الطهارة احس الكتاب الكنسيون بالحاجة الى ادب موغل في الطهارة عسى يندفع قراؤه الى روحانية عظيمة. اجل نعرف سيراً دقيقة ومحققة ولا سيما سير الآباء الكبار. ونعرف السطور العريضة التي ارتسمت بها السير الاخرى والمنهجية النقدية تسعفنا في نقد السيرة المؤسلبة او المنمذجة.

❦ ❦ ❦

تعاقب في هذه المرأة حبان: حب الشهوة وحب الله. عاشتهما بقوة واحدة. لعل صفرونيوس غالى في وصف الشبق الذي كان يغلي في كيانها لما ذهبت من مصر الى الاسكندرية (كما كان اهل مصر يعبرون منذ ذلك الزمن) وهي في الثانية عشرة. هي لم تكن لتتقاضى اجرا عن الفسق. لم تمتهنه. ارادته. لم يكن في نفسها وجسدها شيء آخر. اجل نعرف مناخ الترف والبذخ والفلسفة اليونانية من يهودية ووثنية في الاسكندرية. مرفأ لا يخلو من الغواني. كذلك نعرف مذاهب العرفان في مصر وكلها اختبر مثنوية الروح والجسد وتاليا تأليه الاخير احيانا. والقديس صفرونيوس الذي كان يتجول في شمال افريقيا لما بلغه ظهور الاسلام وهو يكتب باليونانية لم يكن ليجهل ذلك.

ما كان شاغل الرجل – ولم يكن بطريركاً بعد – ان "يعذر" مريم. جدة الانجيل عنده لم تذهبه الى مجالات التحليل هذا. رأى نار التشهي عند هذه الفتاة التي ظهر تحرقها وهي في الثانية عشرة. اشار الى كونها مولودة في بيت مسيحي اذ رغبت في ان تحج الى اورشليم. ومع انه قال انها امية وضع على فمها ايات من الكتاب كثيرة. كل شيء يدل على انها ترعرعت في بيئة مؤمنة والمسيحيون كانوا كلهم كذلك لأنهم كانوا خارجين من الاضطهاد.

هل ارادت ان تكون شهوانية ومسيحية معا؟ رغبتها في الحج الى كنيسة القيامة لتكون فيها في عيد رفع الصليب تدل على انها لم تكن مثلما ارادها صفرونيوس خارجة بالكلية عن مشيئة الله. ضعف هائل ونادر ابانه لنا اليوم علم النفس. الله كان مكنونا في تلك النفس على سقوطها العظيم.

رأت عند المرفأ شباباً مصريين وليبيين يقصدون الحج. راقها جمالهم. كانت موقنة انها ستغريهم في المركب حتى تدفع بذلك ثمن النقل (قلنا انها كانت تتعاطى الزنا ولكن بلا ما يدر عليها اجرا). الفسق من اجل الفسق.

وصلت الى كنيسة القيامة ولم تستطع ان تدخل. حاولت مرتين او ثلاثا. ربما ادركت للمرة الاولى ان في سلوكها ما يناقض هذا البيت وقدسية البيت. انهارت بالبكاء وصلت. وعدت بالتوبة فدخلت. اقتبلها ربها قبولا حسنا. بقيت مقبولة حتى اخر رمق. ولما صارت ضوءاً كاملاً استردها اليه واقام معها عرساً الهياً.

هذا بعدما عرفت السكر الالهي الذي هو ذروة الصحو. كان هذا في بادية الاردن التي عاشت فيها وحيدة لله وحده. لا يهمني كثيرا تفاصيل السيرة التي تروي عن تقشفها. هذا كلام نموذجي تقرأه في معظم السير. المهم في كل حياتها انها التقت راهبا يدعى زوسيما الذي كانت عادة ديره ان يتبدى الرهبان في البرية طوال الصيام. الحديث في الالهيات بينهما غاية في الروعة. طلبت اليه القرابين المقدسة فأتاها بها في موسم العيد في السنة اللاحقة للقائهما. ما يهمني من أمر زوسيما الكاهن انه جثا امامها لكونه عرفها اطهر منه مع انها قالت له عن ماضيها: "لم تكن لي مكافأة للخطيئة الا الخطيئة نفسها". هذا كلام الهي لأن الكلام في عمق المعصية لم يكن ممكنا الا من انسحاق كامل. وعلى هذا النحو قالت عن فسقها القديم: "هذا وحده كان يروقني وكنت اعتقد ان هذه كانت الحياة الحق". كذا كان يقال في كل العواصم آنذاك. وكذا يقال اليوم ويعاش. غير ان حزنها على ماضيها جعلها تعترف للراهب ايضا بهذا: "كنت احدر نفوسا كثيرة الى شباك الموت". من يقدر على كلام كهذا الا الذي خرج من الموت؟

❦ ❦ ❦

غير ان ما لفتني في السيرة الكاملة سؤالها لزوسيما: "كيف يسلك المسيحيون اليوم؟ كيف يتصرف الملوك وكيف يساس قطيع المسيح في الكنيسة المقدسة؟" هذه الناسكة هاجسها الناس وكيف يعيش الناس. هاجسها سلوك الحكام. هذا طبعا كان هم البطريرك صفرونيوس. هو كان قد هرب من فلسطين لأن الاباطرة كانوا ضد الايمان المستقيم الرأي. وبعدما كتب السيرة وجد ان المملكة كلها سقطت او كانت في حكم السقوط. انهارت بسبب من انقسام المسيحيين وتخليهم عن الاساسي. الامر الذي هيأ الدرب للفتح العربي. كيف يسلك المسيحيون اليوم قالت مريم. لعلها تذكرت انهم بين مصر والاسكندرية لم يكونوا على ما يحق للانجيل ان يطلبه منهم. قبلها بمئة سنة رأى العلامة اوريجانيس وهو من بلدها انهم لم يكونوا على السوية التي ينتظرها ربهم منهم.

كيف يساس قطيع المسيح اي كيف يسلك الاساقفة؟ اوريجانيس كان يقول ان الاسقف يمشي معه حارس فهاله الامر وقال انه وضع عرشاً في وسط الكنيسة وهاله الامر ايضا. كانت تعرف مريم المصرية ان الكنيسة هي حيث يكون الناس. في آلامهم، كانت تعرف ان الكنيسة هي المتوجعة في قلب العالم ولا مهرب من اوجاعها فانها لا تستكين الا في الملكوت. قلة هي مشدودة الى المجد الآتي. وما عدا ذلك سياسة وسلطة ومال. الذين الله يعرفهم له يشاهدون ضياءه منذ الآن. مؤلاء ادركوا انه أحد. كذا عرفته امنا البارة مريم المصرية فصارت ايقونته.

المطران جورج خضر